بلاغة الجملة الخبرية
في سورة يوسف (عليه السلام)

د. عبدالله بن أحمد بن محمد العمري
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي ـ كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

بلاغة الجملة الخبرية
في سورة يوسف (عليه السلام)

د. عبدالله بن أحمد بن محمد العمري
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي
كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

تعد الجملة الخبرية أحد شقي التركيب اللغوي في لغتنا الجملية، حيث تمثل مع الشق الآخر الجملة الإنشائية بناء التركيب في اللغة العربية ، والجملة الخبرية بما لها من ثقل في التركيب اللغوي تنطلق من قضية الإسناد إنطلاقاً بلاغياً يحكمه التلون في إبداعها ، من جملة خبرية خالية من المؤكدات ، إلى جملة خبرية مؤكدة بمؤكد واحد ، أو أكثر من مؤكد حسب مقتضى الحال . وقد حفلت سورة يوسف عليه السلام بكم كبير من تلك الجملة مما استدعى دراستها بلاغيا حيث صنفت تلك الجمل بحسب أبرز موضوعات السورة إلى : أخبار منامية ، وأخبار اعتذارية ، وأخبار وعدية ، وأخبار احتجاجية ، وذلك لتسهيل الدراسة البلاغية وإبرازها بشكل واضح وقسمت تلك الأخبار في البحث إلى مباحث ، كل مبحث ينطوي تحته واحد من الموضوعات المذكورة .

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين ،والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين .أما بعد :

فإن أشرف ما شخصت إليه الأنظار،وجالت فيه الأفكار– كتاب ا لله تعالى ،ناهيك عن الغوص في بلاغته ،والبحث عن مكنوناته ،فلا غرو أن يكب عليه الباحثون ،وينهل منه الناهلون ،ومما يولى بالاهتمام في بلاغة القرآن – التركيب اللفظي ، وأشهره ما يسمى في اللغة العربية بالجملة ،

فإن الجملة في التركيب اللغوي العربي لا تخرج عن قسمين اثنين :

الأول – الخبر . والثاني – الإنشاء.

ولكل منهما حظه من التقسيم ،والتفريع ،والأثر البلاغي . والقرآن الكريم لا يخرج في نظمه عن هذين القسمين، وسورة يوسف سورة تكاد تحتويها قصة يوسف عليه السلام من أولها إلى آخرها ،والقصة عادة تتناول في أحداثها وشخصياتها وزمانها ومكانها أخباراً شتى ،تبرز من خلالها حقائق القصة، وتظهر إطارها العام ،وخصائصها الدفينة .

ولما كانت سورة يوسف كذلك ؛ آثرت أن أبحث بلاغة الجملة الخبرية في تلك السورة ،سائلاً الله تعالى أن أكون قد أسهمت ولو بشيء يسير من إظهار بلاغة القرآن في جانب من جوانب الجملة العربية .

أما خطة هذا البحث، فهي مكونة من : تمهيد يعرض للجملة الخبرية ،من حيث تعريفها ،وأقسامها وآراء البلاغيين فيها .

يلي التمهيد مباحث أربعة هي عناصر البحث ،حيث وجدت الأخبار في سورة يوسف عليه السلام لا تكاد تخرج عن أربعة أنواع من الأخبار ،وقد أسميت تلك الأخبار تبعا لتلك الأنواع وهي كالتالي :

المبحث الأول: الأخبار المنامية في سورة يوسف عليه السلام

المبحث الثاني :الأخبار الوعدية .

المبحث الثالث : الأخبار الاعتذارية .

المبحث الرابع : الأخبار الاحتجاجية .

ثم يلي هذه المباحث خاتمة البحث ، ففهرس المصادر والمراجع .

وسوف يكون البحث قائماً على استقراء بلاغة الجملة الخبرية في ظل سياقها الدلالي، مستعيناً على ذلك بما توافر لي من أقوال بعض علماء البلاغة ،وعلماء التفسير في هذا السياق ،معتمداً على المقايسة حسب ما وفقني الله تعالى إليه .

* * *

توطئة :

لماذا الجملة الخبرية ؟ ولماذا سورة يوسف ؟

سورة يوسف من السور القلائل التي انتظمت في طياتها ومن خلال آياتها قصة نبي شملت مجمل حياته ، وما جرى فيها من أحداث وأخبار وتقلبات ، بين حدث مفجع ، وخبر موجع ، ومواقف ذات ألوان متعددة ، ومن خلال ذلك كله كانت هناك أخبار متنوعة ، بين الجديد الذي لم يتلقه السامع من قبل ، وبين ما يتوقع أن يكون للمتلقي موقف من قبوله ، بين القبول والرفض والتردد ، ومن هنا كان اختيار الموضوع لعله يظهر بعض البلاغة في تلك الأخبار .

التمهيد

-الجملة الخبرية في سورة يوسف عليه السلام .

الجملة في اللغة العربية لا تخرج عن نوعين : الجملة الخبرية ، والجملة الإنشائية .

و " الحذاق من النحاة وغيرهم من أهل البيان قاطبة على انحصار الكلام فيهما ، وأنه ليس له قسم ثالث "[1].

ويعرّف الخبر عند البلاغيين بأنه : " هو الكلام المحتمل للصدق والكذب ، أو التصديق والتكذيب ... "[2] .

أو هو " ما صح أن يوصف بالصدق أو الكذب .

وقد " اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاذب : فذهب الجمهور إلى أنه منحصر فيهما ، ثم اختلفوا فقال الأكثر منهم : صدقه مطابقة حكمه للواقع ، وكذبه عدم مطابقة حكمه له ، هذا هو المشهور ، وعليه التعويل .

وقال بعض الناس : صدقه مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر صوابا كان أو خطأ ، وكذبه عدم مطابقة حكمه له ..... "[3] .

" وخلاصة ذلك أن الجملة الخبرية يكون القصد منها إفادة أن محتواها سواء أكان إثباتا أو نفيا له واقع خارج العبارة يطابق هذا المحتوى ، فنصف الكلام بالصدق أو الكذب

---

(١)الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ج١ ص ٧٥ ـ ٧٦.

(٢)مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٦٦.

(٣)الإيضاح للقزويني ص ١٨.

أو لا يطابقه فنصف الكلام بالكذب . فقولك جاء زيد يراد به أن هذه النسبة الكلامية لها نسبة في الخارج أي أنه وقع مجيء من زيد ، وكذلك قولك لم يجيء زيد "[1] .

وأنكر الجاحظ انحصار الخبر في القسمين ، وزعم أنه ثلاثة أقسام : صادق ، وكاذب ، وغير صادق ولا كاذب ، لأن الحكم إما مطابق للواقع مع اعتقاد المخبر له أو عدمه . وإما غير مطابق مع الاعتقاد أو عدمه ؛ فالأول – أي المطابق الاعتقاد – هو الصادق ، والثالث أي غير المطابق مع الاعتقاد ـ هو الكاذب ، والثاني والرابع أي المطابق مع عدم الاعتقاد وغير المطابق مع عدم الاعتقاد – كل منهما ليس بصادق ولا كاذب .

فالصدق عنده : مطابقة الحكم للواقع مع اعتقاده ، والكذب : عدم مطابقته مع اعتقاده ، وغيرهما ضربان : مطابقته مع عدم اعتقاده ، وعدم مطابقته مع عدم اعتقاده "[2] .

" أما السبب في كون الخبر محتملا للصدق و الكذب ، فهو إمكان تحقق ذلك الحكم ، مع كل واحد منهما ، من حيث أنه حكم مخبر ، ومرجع كون الخبر مفيدا للمخاطب إلى استفادة المخاطب منه ذلك الحكم ، ويسمى هذا : فائدة الخبر ، كقولك زيد عالم لمن ليس واقفا على ذلك ، أو استفادته منه أنك تعلم ذلك كقولك لمن حفظ التوراة : قد حفظت التوراة ، ويسمى هذا لازم فائدة الخبر ، والأولى بدون هذه تمتنع ، وهذه بدون الأولى لا تمتنع ، كما هو حكم اللازم ومطابقة ذلك الحكم للواقع ، أو غير مطابقته له ، وهو المتعارف بين الجمهور وعليه التعويل"[3] .

" هذان غرضان رئيسان للخبر عند إلقائه إلى المخاطب : فائدة الخبر إذا كان يخاطب جاهلا يود إخباره بشيء لم يعرفه ، ولازم الفائدة ؛ إذا كان المتكلم يريد أن يخبر المخاطب بأنه عارف بهذه الخبر ، ليس خافيا عليه "[4] .

" المقياس الدقيق إذاً هو أن الخبر إذا ألقي إلى من يجهل مضمونه سمي : " فائدة الخبر " وإذا ألقي إلى من يعلم مضمونه دعي : " لازم الفائدة " ولكلٍ مقام ومكان "[5] .

---

(١)دلالات التراكيب دراسة بلاغية . د محمد محمد أبو موسى ص ١٨٥.

(٢)الإيضاح للقزويني ص ١٩.

(٣)مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٦٦.

(٤)البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني – ص ١٠٩.

(٥)البلاغة العربية في ثوبها الجديد . ج١ – علم المعاني – ص ٦٠.

" وقد يخرج الخبر عن هذين الغرضين الأساسيين .

فيأتي لإظهار التحسر مثل قوله تعالى : " رب إني وضعتها أنثى "

والضعف مثل قوله تعالى : " رب إني وهن العظم مني "

والمدح كقول النابغة :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

والذم كقول المتنبي يهجو كافورا :

وتعجبني رجلاك في النعل إنني رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيا

والفخر كقول عمرو بن كلثوم :

إذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدينا

إلى غير ذلك من الأغراض التي تتضح من سياق الكلام "[1]

وهناك من يرى أن الخبر لا يخرج عن غرضيه الأساسين : " فائدة الخبر " و" ولازم الفائدة " حيث يقول : " ليس للخبر إلا غرضان اثنان أساسيان : فائدة الخبر ، ولازم الفائدة . وهذان الغرضان يحملان في الوقت ذاته معاني شتى ، قد يكون منها إظهار الضعف ، أو الاسترحام ، أو الاستعطاف ، أو التحسر، أو المدح ، أو الفخر ، أو غير ذلك "[2] .

وهذا الرأي لا يتعارض مع آراء البلاغيين فالغرضان الأساسان متفق عليهما من الجميع ثم ما عداهما ، فإن قبل خروجا عنهما أو تفرع منهما فلا مشاحة في التسمية .

ثم إن الخبر يكون له أضرب ثلاثة بحسب حال المخاطب : فإما أن يكون المخاطب خالي الذهن فلا علم له بشيء مما يلقى عليه من خبر . وإما أن يكون مترددا في قبول الخبر من المخبر بين قبول الخبر وعدم قبوله ، وإما أن يكون منكرا للخبر الملقى عليه .

وعندئذ يرد الخبر متفقا مع حال المخاطب ، مراعيا لموقفه من قبول الخبر فيتردد الخبر بين الخلو من المؤكدات لخالي الذهن ، وبين اقترانه بالمؤكدات حسب حاله بين التردد والإنكار .

---

(١)فن البلاغة . د عبد القادر حسين ص ٨٢ .

(٢)البلاغة العربية في ثوبها الجديد . ج١ – علم المعاني ص ٦٠.

" فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم ، فحسن الكلام تجريده عن مؤكدات الحكم ، وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك ، فحسن الكلام تحليه بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفا وقوة "[1] .

وعلى هذا يقال إن للخبر ثلاثة أضرب بحسب حال المخاطب التي يراعيها المتكلم عند إلقاء الخبر :

" فإذا ألقى الجملة الخبرية إلى من هو خالي الذهن عما يلقى إليه ، ليحضر طرفاها عنده ، وينتقش في ذهنه إسناد أحدهما إلى الآخر ثبوتا أو انتفاء كفى في ذلك الانتقاش حكمه ، ويتمكن لمصادفته إياه خاليا :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبي خاليا فتمكنا

فتستغني الجملة عن مؤكدات الحكم ، وسمي هذا النوع من الخبر ابتدائيا .

وإذا ألقاها إلى طالب لها متحير، طرفاها عنده دون الاستناد ، فهو بين بين ، لينقذه عن ورطة الحيرة ، استحسن تقوية المنقذ بإدخال اللام في الجملة، أو إن كنحو لزيد عارف أو إن زيدا عارف ، وسمي هذا النوع من الخبر : طلبياً .

وإذا ألقاها إلى حاكم فيها بخلافه ، ليرده إلى حكم نفسه ، استوجب حكمه ليترجح تأكيدا بحسب ما أشرب المخالف الإنكار في اعتقاده ، كنحو : صادق إني ، لمن ينكر صدقك إنكارا ، وإني لصادق لمن يبالغ في إنكار صدقك ، ووالله إني لصادق ، على هذا "[2] .

" وإذا ورد التعبير اللغوي على الصيغ السابقة من عدم التوكيد لخالي الذهن ، والتوكيد استحسانا للمتردد والشاك ، والتوكيد وجوبا للمنكر على حسب إنكاره قوة وضعفا كان الكلام متناسبا مع ما يقتضيه ظاهر الحال .

وقد يخرج الكلام على مقتضى الظاهر إذا كانت هناك مقتضيات بلاغية معينة تستدعي من المتكلم مراعاتها ، وتتطلب منه تعديل أسلوبه الأدبي بناء على دواع فهمها من حال المخاطب ، ولاحظها بمعونة القرائن فيكون الخروج على مقتضى الظاهر أبلغ في الدلالة وأقوى في التعبير عن المعنى المقصود "[3] .

---

(١)مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٦٩.

(٢)السابق ص ١٧١.

(٣)دراسات في المعاني والبديع . د عبد الفتاح عثمان.

الجملة الخبرية في سورة يوسف :

هذه السورة الكريمة كغيرها من سور القرآن الكريم تزخر بفنون البلاغة المتعددة من علم معان ، وعلم بيان ، وعلم بديع .

وتنتظم هذه السورة الكريمة قصة نبي من الأنبياء وقع فيها من الإثارة ، وتعدد الأطوار ما حشد فيها من الأخبار المختلفة كما هائلا مغريا بدراسته بلاغيا؛ فتعدد الشخصيات والحوادث والأخبار في القصة يجعلها ثرية في البحث البلاغي على اختلاف أنواعه ،ولاسيما الجانب الخبري أو الإخباري الذي استحوذ على حيز كبير من القصة، وتعدد الخبر بتعدد المواقف ، وبتعدد مقتضيات الأحوال ، وسوف أتعرض لدراسة بلاغة الجملة الخبرية في هذه السورة الكريمة ، معتمدا على تقسيم الأخبار الواردة في السورة إلى عدة أقسام ، تقوم عليها مباحث هذا البحث هي كالتالي :

١- الأخبار المنامية. ٢- الأخبار الوعدية .

٣- الأخبار الاعتذارية . ٤- الأخبار الاحتجاجية .

ولايعني هذا التقسيم أنه لا يوجد في السورة أخبار أو جمل خبرية تخرج عنه ، ولكن هذه الأقسام الأربعة هي السواد الغالب في مجريات أحداث السورة ، ولايكاد يخرج عنها إلا نزر يسير من الأخبار ، أو الجمل الخبرية تدخل بلاغيا في تفاصيل ما سيذكر في هذه الأقسام .

* * *

المبحث الأول – الأخبار المنامية :

والمقصود بها الأخبار عن الرؤى والأحلام ، التي تعرض للنائم في منامه ، وقد بلغت الأخبار المنامية في هذه السورة أربعة أخبار منامية ، هي :

١- قال الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام في مستهل قصة يوسف : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ آية ٤ .

٢- وقال تعالى على لسان أحد الفتيين اللذين دخلا مع يوسف عليه السلام السجن : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ الآية .

٣- وقال تعالى على لسان الفتى الآخر : ﴿ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ آية ٣٦ .

٤- وقال تعالى على لسان الملك : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ آية ٤٣ .

إن المتأمل في الإخبار عن الرؤى في هذه الآيات ليرى أن الجملة الخبرية فيها يتقدمها حرف تأكيد واحد هو "إن" وكما سبق فإن الخبر يؤكد بمؤكد واحد ؛ حينما يكون السامع مشككا ، أو مترددا في قبول الخبر ، أو حينما ينزله المتكلم منزلة المشكك أو المتردد ؛ فهل هنا ما يدل على ذلك ؟

أقول – والله أعلم – إنه لما كانت الرؤى والأحلام مظنة الشك من السامع ، والتردد في قبولها ، فكثيرا ما ينسى النائم بعض ما رأى ، أو كل ما رأى ، ثم إن الرؤى عادة يكون الخبر فيها غريبا ، ومخالفا لما اعتاده الناس في يقظتهم ؛ فإن الرائي ينزل المخاطب منزلة من يشك في قبول الخبر ، أو يتردد في تصديقه ، فعليه ترد الجملة الخبري المنامية مؤكدة بمؤكد واحد ، هو"إن " التي تعد أم بابها في حروف النسخ والتوكيد ، لما لها من حضور لفظي ، وأثر معنوي .

وبالنظر في تلك الأخبار المنامية يظهر مدى ما تحيوه من صور ومعان مخالفة للواقع المعتاد في حال يقظة الناس ومعاشهم .

ففي رؤيا يوسف عليه السلام أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رآها تسجد له ، وواقع الأمر أننا لا نعلم كيف يكون سجود الشمس والقمر والكواكب . فهذا أمر لا يتفق مع واقع ما نعلمه من هذه المخلوقات . نحن نعلم أنها تسجد لخالقها جل وعلا ، ولكنا لا نعلم كنه هذا السجود ولا ندرك كيفيته .

وفي رؤيا صاحبي سجن يوسف ، من الغرابة ما فيهما ؛ فأحدهما يرى نفسه يعصر خمرا ، والآخر يرى نفسه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه . وليست الغرابة هنا في إمكان حدوثهما في الواقع ، ولكن الغرابة في علاقتهما بالسجينين . فعصر الخمر لا يكون إلا في بحبوحة من العيش وزيادة رفاهية ، وفيضان نعمة ، وهذا الواقع أبعد ما يكون عن سجين لا يعلم عن مصيره شيئا . وحمل الخبز فوق الرأس وأكل الطير منه يقدم صورة لخير ونعمة وأمن وبعد عن كل مثير، حتى أن الطير يأكل من هذا الخبز دون خوف ولا حذر .

وأما رؤيا الملك فهي خليط من العجائب ،فسبع بقرت سمان يأكلهن سبع عجاف ، وليس في واقع الناس أن البقر يأكل بعضها بعضا مهما بلغ بها العجف ، وأدركته المجاعة القاتلة ، قد يحدث ذلك في عالم الحيوانات المفترسة المتوحشة ، أما في عالم البقر الحيوان المسالم فلا يحدث ذلك أبدا ، والسبع السنبلات الخضر والسبع اليابسات لا يستغرب أن ترى في واقع الناس بعمومها ، ولكن الغرابة في العدد في كل منهما ، وكذا ربما في اجتماع الخضر واليابسات في مكان واحد نوع من الغرابة ، إذ واقع الحرث التقارب بين نباتاته خضرة ويباسا .

إن ما ذكر من الغرابة ومخالفة الواقع في تلك الأخبار المنامية ليدعو إلى التساؤل من المخاطب نحو صحة الخبر مما يجعل المتكلم ينزله منزلة المشكك والمتردد ، ومن هنا جاء تأكيد الخبر بمؤكد واحد يزيل اللبس ، ويدفع الشك والتردد .

ومنحى بلاغي آخر يظهر من خلال هذه الأخبار الأربعة ؛ فالخبر الذي على لسان يوسف عليه السلام جاء التعبير عنه بالفعل الماضي " إني رأيت " بينما جاء التعبير على لسان الفتيين وعلى لسان الملك بالفعل المضارع " إني أراني " " إني أرى " وهذا الأمر مما يتطلب التوقف والسؤال ، وأقول –والله أعلم– لعل في خبر يوسف عليه السلام ما يدل على أنه علم تأويل رؤياه قبل أن يقصها على أبيه ، وإنما قصها على أبيه من باب التحدث بالنعمة ،

ولذا لم يفسرها له أبوه وإنما حذره أن يقصها على إخوته الذين سوف يعلمون تأويلها غالبا مما يجعلهم يكيدون ليوسف كيدا ، دافعه الحسد والغيرة ، بالإضافة إلى احتمال أن يكون يوسف عليه السلام لم يبادر بقص الرؤيا على والده ؛ إما لما ذكر، وإما لعدم تمكنه من الاختلاء بأبيه بعيدا عن إخوته وغيرهم .

أما في رؤيا الفتيين والملك فهناك مبادرة بقصها ، وكأن الرائي مازال متلبسا بها عائشا أحداثها ، وكذلك لرغبته في معرفة تفسيرها وتطلعه إلى فهمها ، فلا علم لهم بالتأويل وللرؤى والأحلام عندهم شأن عظيم ؛ ولذا قال جلساء الملك" أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين " فقولهم أضغاث أحلام تسرية للملك ، وتهوين من شأن الرؤيا التي يحسب لها الملك حسابها ، وقولهم وما نحن بتأويل الأحلام تنصل من معرفتهم بما أهم الملك وحرك شجونه .

* * *

المبحث الثاني: الأخبار الوعدية :

يقوم الإخبار الوعدي عادة على إعلام المخاطب بوعد إما ينكر المخاطب وقوعه ، وإما يحرص على إنجازه . فأما ما ينكر وقوعه فبناء على موقف أو مواقف سابقة جعلت المخاطب ينظر إلى ما يأتيه من خبر من المتكلم نظر المنكر الممانع . وأما ما يحرص على إنجازه فذلك لأهميته عنده مما يجعله يقف من قبوله موقف المشكك في صحته ، المتردد في قبوله ، مما يجعل المتكلم يؤكد خبره بما يزيل الشك ، ويبعد التردد ، وذاك ما يسمى الضرب الطلبي من أضرب الخبر الثلاثة .

وقد وردت الأخبار الوعدية في سورة يوسف في عدة مواضع ، منها ما كان على لسان إخوة يوسف عند محاورتهم لأبيهم ليرسل يوسف معهم لتدبير مكيدتهم ، وكذلك محاورتهم ليوسف عندما طلب منهم إحضار أخيهم إليه ، وقد وردت تلك الأخبار في الآيات التالية :

قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ۝ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ آية ١١ – ١٢ .

وقال تعالى : ﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ آية ١٤ .

وقال تعالى : ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ آية ٦١ .

مما يلحظ من هذه الأخبار الوعدية التي وردت على لسان إخوة يوسف –عليه السلام – أنها أكدت بأعلى أدوات التوكيد . فالجمل التي وردت كلها جمل اسمية ، والجمل الاسمية تدل على ثبات الأمر ولزومه ،وعدم تغيره . وهذا مما يعد تأكيدا للخبر ، بالإضافة إلى وجود مؤكدين آخرين في كل جملة من هذه الجمل هما : حرف التوكيد "إن" ولام الابتداء الواقعة في خبر الجملة –إنا له لناصحون – إنا له لحافظون – إنا إذاً لخاسرون – إنا لفاعلون – وهذا التوكيد الخبري ينطلق من تنزيل المخاطب منزلة المنكر، لما بدر منه من زيادة عناية بيوسف ،وحب له ، وخوف عليه ، لما ظهر له من علامات تشعر بأنه سيكون له شأن عظيم ، وقد مهدوا لهذا بقولهم : "ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة " والمخاطب هنا خالي الذهن مما سيلقون عليه من خبر النصح ، وخبر الحفظ ، ولكن لما قالوا : " مالك لا تأمنا على يوسف " كان هذا إشعارا منهم أن أباهم ينكر نصحهم ليوسف وحفظهم له ، فأكدوا الخبر بناء على ذلك ،

وإنزالا لخالي الذهن منزلة المنكر من أجل إقناعه بمضمون الخبر الملقى عليه، ومن أجل إظهار براءة المتكلم مما يظنه السامع أو يعتقده.

والآيات الوعدية لا تكون من المتكلم خبرا يوعد به، أو يتوعد به فحسب، وإنما يدخل في ذلك الإخبار عما سيؤول إليه الأمر المخبر عنه في المستقبل. من ذلك قوله تعالى على لسان يعقوب يخبر ابنه يوسف بما سوف تكون عليه حاله بعد الرؤيا التي رآها، وعرف يعقوب تأويلها.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ آية ٦.

وقوله جل ذكره –على لسان إخوة يوسف: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ آية ١٢.

وقوله سبحانه على لسان يعقوب: ﴿ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾ آية ١٣.

ففي الآيات الثلاث أخبار عن أمور مستقبلية، وهذه الأخبار يكون السامع فيها خالي الذهن فهي غيب من المغيب لا يعلمها إلا الله تعالى، ولذا فإن مجيئها لا يتطلب أي مؤكدات، ولا يستدعي أن ينزل المخاطب منزلة غير منزلته في قبول الخبر وتلقيه ﴿ وكذلك يجتبيك ربك، ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك ﴾.

﴿ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب ﴾.

﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾.

كل هذه أخبار خالية من أي مؤكدات باعتبارها إخبار عن المستقبل المبني على ركائز، إما تنبئ عن نتائجها أو على توقعات مبنية على حقائق إنسانية جرى العرف بوقوعها تبعا لمسبباتها.

ونجد أخبارا أخر عن المستقبل ولكنها مؤكدة، وذلك لارتباطها بحال المخاطب التي ينم عنها السياق، فهي أي :حال المخاطب متأرجحة بين التردد في قبول الخبر، أو منكرة له، فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ آية ١٤ فالخبر في الآية مؤكد ﴿ لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون ﴾ فاللام موطئة للقسم، ثم جواب القسم أكد ب"إن" ثم اللام في "لخاسرون" وفي هذا

تنزيل لحال المخاطب منزلة المنكر لإشعاره باهتمامهم بالأمر ، وأنهم سيحفظون أخاهم من الذئب الذي يخافه أبوهم . ولئن حدث أمر من ذلك فإنهم لخاسرون . فمراعاة حال المخاطب هنا من أجل تطمينه ، ومن أجل إقناعه بقبول الأمر .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ آية ١٥ .

والخبر هنا في قوله جل ذكره : "لتنبئنهم بأمرهم هذا " وهذا الخبر من الله تعالى إيحاء أوحاه الله تعالى إلى يوسف عليه السلام – وهو خبر مؤكد باللام ، ونون التوكيد . وفي هذا ما يجعل يوسف يتقبل كيدهم بصدر رحب ، وصبر وأمل ، فسوف يخبرهم بهذا الأمر في يوم ما ، وهذا الوعد الموحى به ممن لا يتبادر إلى ذهن مخلوق أي شك في صدقه وتحققه ، ونفاذ أمره ، ولكنها الرحمة الربانية . فموقف يوسف الطفل الصغير أمام هذا الهول المزعج يتطلب ثبات قلب ، وانشراح صدر، ولذا نزل منزلة المنكر للخبر لتطمينه ، وانشراح صدره لقبول ما يحاك به .

وقال تعالى ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ وهنا خبر مستقبلي هو توعد امرأة العزيز ليوسف إن لم يفعل ما تأمره به وذلك في قوله تعالى : "ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكنا من الصاغرين " فجملة القسم هنا مبدوءة بواو القسم ، ثم باللام يلي ذلك اللام الواقعة في جواب القسم ، بالإضافة إلى نون التوكيد ، وهذا الخبر جاء على مقتضى الظاهر ؛ فيوسف عليه السلام ينكر الخبر بلسان حاله . والمؤكدات هنا تتعدى كون المتكلم يتهدد ويتوعد يوسف عليه السلام ،وإنما تشمل المخاطبات من النسوة ، فالخبر معهن على خلاف مقتضى الظاهر . فما دام اللوم حصل منهن لها لمحاولة التحرش بيوسف فهن هنا خاليات الذهن ، فقد يكون المقام من امرأة العزيز الاعتذار لتلك النسوة ، وأن ما حصل إنما كان نزوة عجلى كما حصل من أولئك النسوة عند تقطيع أيدهن، ولكنها فاجأتهن بذلك الخبر المنبئ عن التهديد والوعيد بالمعاودة الملحة، من دون حياء أو خجل من ألئك النسوة ، ولذا نزلت المخاطبات منزلة المنكر للخبر تأكيدا لما عزمت عليه وأزمعت أمرها أن يؤول إليه .

وقال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ آية ٣٣ وهنا أيضا خبر مستقبلي في قوله تعالى

﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ فالخبر هنا خال من المؤكدات باعتباره موجها إلى عالم الغيب والشهادة فهو العالم بالسرائر ؛ فأنى لخبر أن يخفى عليه وبالتالي فقد جاء الخبر خاليا من المؤكدات مع ما فيه من حرص المتكلم على وقوع الخبر موقعا مباركا من الرحمن الرحيم .

وقال تعالى : ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ وهنا خبر مستقبلي ﴿ إني حفيظ عليم ﴾ وقد أكد بمؤكد واحد بالإضافة إلى اسمية الجملة مما يجعل المخاطب في حالة تردد أوشك من قبول الخبر . وما ذلك إلا لطلب القيام على خزائن الأرض التي تتعلق بمعيشة الناس وتمويل غذائهم . وهو أهم شيء في حياتهم . ولما كان هذا الطلب من الأمور العزيزة نزل المتكلم مخاطبه منزلة المتردد ؛ فأكد الخبر بمؤكد واحد وهو "إن" .

وقال تعالى : ﴿ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ آية ٦١ جملتان خبريتان ، الأولى مؤكدة بمؤكد واحد لتأكيد الخبر ، الذي يتمثل في وعد بعمل مستقبلي . وقد نزل المخاطب خالي الذهن منزلة المتردد ، أو المشكك فالسين هنا تؤكد الجملة الخبرية ، ثم أعقبتها الجملة الخبرية الأخرى المعطوفة على الجملة الأولى ﴿ وإنا لفاعلون ﴾ وهذه الجملة أكدت بمؤكدين "إن" و" اللام " وفيها أيضا تنزيل للمخاطب الذي نزل منزلة المتردد في سابقتها – منزلة المنكر تأكيدا للخبر وإطماعا للمخاطب في قبوله . والمرونة في التعامل مع المتكلم ؛ لكسب الثقة والاطمئنان .

وقال تعالى ﴿ ..... هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ آية ٦٥ .

ونمير أهلنا ، ونحفظ أخانا ، ونزداد كيل بعير ، أخبار ثلاثة مستقبلية وقعت في جمل خبرية مجردة من أي مؤكدات ؛ حيث نزل المخاطب المنكر منزلة خالي الذهن ؛ فيعقوب عليه السلام هنا ينكر أن يحصلوا على أي شيء مما أملوا ، ولاسيما حفظ الأخ فقد فرطوا في يوسف من قبل بخدعة قد تكون هذه أقوى منها عند يعقوب ، ولكنه نزل منزلة خالي الذهن ؛ فالخبر لديهم من الصدق والتمكن لا يحتمل أن يساور المخاطب معه أي شك ، بله أن ينكره ؛ فكان الخبر على هذه الصورة ، بالإضافة إلى أمر آخر يتعلق بالمتكلمين فهم يرغبون إغراء المخاطب والإلحاح عليه في تقبل الخبر من دون أي اعتراض أو تردد

المبحث الثالث : الأخبار الاعتذارية :

وهي تلك الأخبار التي يسوقها المتكلم اعتذارا للمخاطب ، ويكون ذلك العذر أو الاعتذار بحسب حال المتكلم ، أو بحسب حال المخاطب كما هي ، أو كما نزله المتكلم ، أو بحسب العذر الذي ساقه المعتذر المتكلم ، من حيث أهميته لدى المتكلم أو لدى المخاطب ، أو بحسب العرف والعادة .

لقد وردت في سورة يوسف عدة أخبار اعتذارية . فمنها قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ ففي قوله إني ليحزنني أن تذهبوا به – خبر إنكاري باعتبار مؤكدات الخبر حيث أكد بحرف التأكيد "إن" وباللام في "ليحزنني" وهذا الخبر ألقي على مخاطب خالي الذهن ، والمخاطب هنا هم أبناء يعقوب الذين عرضوا على أبيهم أن يرسل يوسف معهم من الغد ، وهم لا يعلمون ماذا سيكون رد أبيهم على طلبهم هذا وإن كان في كلامهم ما يوحي بعدم قبوله له ، ولكن ذلك الإيحاء لا يتجاوز عادة أن يؤكد الخبر بمؤكد واحد .

ولكنه نزلهم منزلة المنكر لبيان أهمية الخبر عنده هو ، ويلحظ هنا أنه تحول من كلامهم عن يوسف ليتكلم عن نفسه ، ثم أتى بهذا الخبر المؤكد بمؤكدين زيادة ، والمتكلم هنا عندما يعتذر عن قبوله لذهاب يوسف مع إخوته إنما يتوجه بالخبر إلى الناحية العاطفية في الأبناء وهي مشاركته في حزنه على يوسف وبالتالي التخلي عن طلبهم ، وفي تنزيل المخاطب منزلة المنكر ما فيه من هذه الناحية العاطفية .

ثم عطف على ذلك الخبر المؤكد خبرا آخر خاليا من المؤكدات : " وأخاف أن يأكله الذئب " فإذا اعتبرت الواو استئنافية فالجملة هنا خالية من المؤكدات باعتبار السامع لا يدور في خلده شيء من أن يوسف سيتعرض لخطر الذئب ؛ فعادة الذئب لا يهاجم العصبة المجتمعة ، ولا يجرؤ على الاقتراب منهم فناسب أن يخلو الخبر من المؤكدات ، وكان على مقتضى الظاهر .

وأنا أميل هنا إلى أن هذه الواو استئنافية ، لبعد الجمع بين الحزن والخوف من أكل الذئب ليوسف .

ومن الأخبار الاعتذارية قوله تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ ﴿إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ﴾الخبر هنا ملقى على خالي الذهن وهو يعقوب عليه السلام . وهو مؤكد بمؤكد واحد "إن" وذلك لما يعلمونه من يعقوب عليه السلام أنه يعلم سلفا أنهم سيفرطون في يوسف بل سيتخلصون منه بأي وسيلة ؛ فنزلوه منزلة المتردد في قبول الخبر بينما هو الذي ذكرهم بخوفه على يوسف من الذئب . وقد يكون بذلك قدم لهم عذرا قبل أن يدبروا مكيدتهم – ما كان ذلك العذر يطرأ على بال أحد منهم .

وحالهم هنا يتطلب منهم ألا يتجاوزوا ذلك . فلو أكدوا الخبر بأكثر من مؤكد لدل ذلك على أن في أمرهم ريبة فالمتلقي أبوهم والضحية أخوهم فلا بد من مراعاة ذلك ولو تصنعا . ويلحظ قولهم "نستبق" فلم يقولوا نتسابق على سبيل المفاعلة وإنما قالوا نستبق وكأنهم يسعون إلى غير نهاية ليدللوا أنهم ابتعدوا عن يوسف ؛ مما أتاح للذئب أكله بالكلية فلا أمل في عودته ولا جزء منه وذلك لتيئيس أبيهم من الحديث عنه . كما يلحظ قولهم "عند متاعنا" فهم بهذا كالذي يقول إنا تركناه مع متاعنا حتى لا يظن بهم إنما كان استباقهم تجاه متاعهم . وأن يوسف تأخر عنهم لعدم قدرته فتمكن الذئب من أكله . وفي هذا حيلة منهم لتعريض يوسف للخطر، كما أن في تركه عند المتاع دلالة على عنايتهم به وعدم تفريطهم فيه .

كما يلحظ دخول الفاء على فعل أكله للدلالة على المبادرة والسرعة . فلم يتمكنوا مع حرصهم المزعوم من العودة إلى يوسف إلا وقد أكله الذئب .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ .

فقوله "معاذ الله" أي : أعوذ بالله . ولما كانت الجملة الفعلية تدل على التجدد والحدوث اختار الجملة الاسمية المؤدية للمعنى نفسه ؛لأنها تدل على الثبات والدوام فهو هنا يقطع عليها خطوط الأمل فيما طلبت حتى لا تعاود مرة أخرى .

والجملة هنا جاءت ابتدائية متناسبة مع حال المخاطب، فذهن المخاطب خال من فحوى الخبر ومضمونه .

ومنه قوله تعالى على لسان امرأة العزيز بعد أن حضر إليها النسوة وذهلن من جمال يوسف : ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ جملة خبرية خالية من المؤكدات لاعتبار حال المخاطب فهو خالي الذهن ، فلا تعلم النسوة ماذا ستقول امرأة العزيز عن يوسف ، ويلحظ إشارتها إليه بالبعيد تعظيما لمنزلته في نفسها . وإلماحا منها إلى لومهن إياها بقولهن : ﴿ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فهو مجرد فتى في نظرهن لا يؤبه به ، ولا يتطلع إلى مثله من أمثال امرأة العزيز .

ومن ذلك قوله تعالى على ألسنة إخوة يوسف : ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ إن له أبا شيخا كبيرا . جملة خبرية مؤكدة بمؤكد واحد، وذلك مراعاة لمقام يوسف عليه السلام من أخذ أخيه ، فهم يعلمون من يوسف دقة التنفيذ في الحكم ، وعدم التهاون مع المخطئ، وعدم تحميل أحد وزر غيره ؛ فأكد الخبر بمؤكد واحد مع خلو ذهن المخاطب من مضمون الخبر ولكن لما كان الخبر مما يهم إخوة يوسف الاستجابة له أكد بمؤكد واحد؛ فنزل خالي الذهن منزلة المشكك أو المتردد في قبول الخبر . ويوسف أعلم منهم بمضمون الخبر ، وبما سيؤول إليه حال أبيه عند سماعه احتجاز ولده الذي كان حريصا ألا يذهبوا به معهم حتى أتوه موثقا من الله ليأتنه به إلا أن يحاط بهم ، وهذا الخبر الاعتذاري لم يكن منهم اعتذارا لأخيهم الذي وقع في تهمة أخذ صواع الملك ، وإنما هو اعتذار من أجل أبيهم ، ولذا وصفوه بأنه شيخ كبير ، ويلحظ في قولهم "إن له أبا شيخا كبيرا" ،وتقديم الخبر الجار والمجرور "له" لإرادة حصر أبوته في هذا الفتى وكأن ليس له من البنين غيره ، حتى يكون ذلك الخبر استعطافا للمخاطب لعل قلبه يرق فيتفاعل مع طلبهم فيأخذ أحدهم مكانه .

ومن الأخبار الاعتذارية قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام : ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ۖ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ وهذا الخبر الاعتذاري جاء على ظاهره ، فالمخاطب خالي الذهن والخبر خال من المؤكدات ولكن كلمة " معاذ الله " فيها من الإيحاء ما يجعل المخاطب يشعر بأهمية ما يتلو هذا التركيب الدال على حرص المتكلم ، واجتهاده في عدم قبول ما طلب منه .

ويلحظ في تعليل هذا الخبر أنه ورد جملة خبرية مؤكدة بمؤكدين هما "إن" واللام بالإضافة إلى اسمية الجملة وفي هذا إغلاق لباب الحوار في هذا الموضوع .

ومن الأخبار الاعتذارية قوله تعالى : ﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾.

﴿ إن ابنك سرق ﴾ جملة طلبية مؤكدة بمؤكد واحد وقد القي الخبر فيها على خالي الذهن، فهم قادمون من سفرهم لا يعلم أبوهم ماذا فعلوا، وماذا فعل بهم ، وكان من حقه أن يلقى عليه الخبر خاليا من المؤكدات، ولكن لعلمهم أن أباهم في نفسه شيء من ذهاب أخيهم معهم فقد نزلوه منزلة المشكك في خبرهم . وكذا راعوا حاله من حيث ثقته في ابنه أنه لن يقدم على سرقة فهو من بيت نبوة وما كان له أن يقدم على مثل ذلك الذنب . ويتكرر هنا التعبير الدقيق في عبارات إخوة يوسف حيث قالوا " ابنك " ليشعروا أباهم أنهم بريؤون مما عمل أخاهم حتى أنهم لا يرون أن ينعتوه بأنه أخوهم . وفي هذا ما يجعل ردة الفعل عند أبيهم أخف كما يتصورون ؛ فقد وعدوه من قبل بقولهم : " ونحفظ أخانا" .

ثم قالوا بعد سرد الدلائل على صدقهم : "وإنا لصادقون " فأكد الخبر هنا بثلاثة مؤكدات هي : الواو الموطئة للقسم و"إن" واللام وهذا غاية التأكيد ؛ فالمخاطب هنا بعد تلك الدلائل قد يكون مترددا في قبول الخبر، أو مشككا في صحته [واعلم أنهم لما كانوا متهمين بسبب واقعة يوسف عليه السلام بالغوا في إزالة التهمة عن أنفسهم فقالوا "واسأل القرية التي كنا فيها " والأكثرون اتفقوا على أن المراد من هذه القرية مصر، وقال قوم : بل المراد منها قرية كانت على باب مصر جرى فيها حديث السرقة والتفتيش] [1] فقد استشهدوا بالقرية التي كانوا فيها، واستشهدوا بالعير التي أقبلوا فيها والاستشهاد بكل من القرية والعير فيه دليل على أن الحادثة وقعت . وأن أي إنسان من أهل القرية . أو من أهل العير يعلم بما حصل فلا يبقى بعد ذلك ريب لدى المخاطب . ولكنهم نزلوه منزلة المنكر فناسب أن يخاطبوه بخبر مؤكد بأكثر من مؤكد ين إظهارا لحجتهم، ومحاولة منهم لإزالة كل ما قد يعتمل في صدر أبيهم من أوهام وشكوك .

ومن ذلك قوله تعالى على لسان إخوة يوسف عليه السلام : ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ . ﴿ تالله لقد آثرك الله علينا ﴾جملة مؤكدة بثلاثة

---

(١)التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٨ ص ١٩٠.

مؤكدات : القسم ،واللام ،وقد ،وفي هذا إلماح إلى غبطتهم له ،وسرورهم بما هو فيه ، واعترافهم بخطئهم بل بخطيئتهم . وإلماحا لصنيعهم غير المسوغ معه وهو أخوهم الذي لم يحدث منه ما يسوؤهم . ولكنه الحسد الذي يعمي القلوب، ويذهب بموازين العقول، وفي ابتداء الخبر بهذا القسم الموحي بغلظته من خلال اختيار حرف القسم التاء الموحي بالقوة ما يظهر قوة ردة الفعل لديهم عند المفاجأة التي ما كانوا يتوقعونها ،ولا يحسبون حسابها وقد بدأوا بهذه الجملة قبل جملة الاعتذار منه ليخبروه بموقفهم منه في عزه وتمكينه الذي هو فيه ؛ ليعلم أن تلك العصبة المتمالئة عليه في زمن طفولته قد أصبحت في موقف ضعف أمامه . واعتراف بفضله عليهم . ولعل في اختيار فعل الإيثار هنا وإسناده إلى الله جل وعلا ما يشي بما في نفوسهم من خوف الانتقام . ففي ذلك ما يجعل يوسف عليه السلام يتذكر المنعم المتفضل الذي مكنه وأكرمه وفضله عليهم ، بعد أن كان في قبضتهم كالعصفور مهيض الجناح في زمن ما .

ثم قالوا معتذرين عن خطئهم : " وإن كنا لخاطئين" ويلحظ أن الجملة هنا معطوفة على سابقتها ،فهي تأخذ حكمها من حيث مؤكدات الخبر . وفي هذا تنزل للمخاطب خالي الذهن منزلة المنكر . وذلك إمعان في تقوية الخبر رغبة في قبوله . وعدم التردد أو الشك فيه فضلا عن الإنكار. ومن بلاغة الجملة هنا :أنها جاءت بشكل فيه سرعة في الأداء واختصار في اللفظ حبا في إيصال عذرهم بل اعتذارهم عما بدر منهم. واعترافا بما وقعوا فيه من خطأ يظهر ذلك من خلال تخفيف "إن" الثقيلة وحذف اسمها ،ثم إدخال كان واسمها للدلالة على أن خطئهم كان – أما الآن فهم على حال مختلفة إذ أعلنوا سعادتهم بما وفق إليه يوسف . وبما مكنه الله منه وهذه الجملة الاعتذارية هي اعتراف بالذنب والخطيئة ، وهذا من أسباب استجلاب العفو وعدم المؤاخذة .

ومن ذلك قوله تعالى على لسان أبناء يعقوب لأبيهم : ﴿إنا كنا خاطئين﴾ وفي هذه الجملة الخبرية الاعتذارية يرد مؤكد واحد هو "إن " المؤكدة وذلك مراعاة لحال المخاطب الذي تقدم في مخاطبته ما يثير تساؤلا يتطلب إزالة لبس ذلك التساؤل بمؤكد واحد ،ذلك في قوله تعالى قبل هذه الجملة على ألسنة المتكلمين " يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا " فطلب الاستغفار مدعاة لتساؤل المخاطب عن سبب الاستغفار، فكان توكيد الخبر بمؤكد واحد هو الملائم لحال المخاطب .

المبحث الرابع : الأخبار الاحتجاجية :

هي تلك الأخبار في السورة الواردة على سبيل إقامة الحجة على خبر يريد المتكلم أن يثبت صدقه فيه ، أو يريد أن يفند خبرا أو دعوى صدرت من غيره، ليثبت خلافها ،أو عكسها ونقيضها ، فتكون الأخبار الاحتجاجية إما احتجاجا للمتكلم ، أو لمن يدافع عنه المتكلم ، أو احتجاجا على المخاطب أو غير المخاطب .

والخبر الاحتجاجي يكون عادة مما تقوى فيه الحجة ، ويراد من المخاطب أن يستوعبه وينتبه إليه ، ليقبل الحجة ، ويصدق المتكلم .

فمن تلك الأخبار الاحتجاجية الواردة في سورة يوسف قوله تعالى على لسان إخوة يوسف عليه السلام : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ آية ٨ .

﴿ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ " اللام للابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه "(١) .

" وإنما قالوا أخوه ، وهم جميعا إخوة لأن أمهما كانت واحدة "(٢)

" وإنما لم يذكر باسمه تلويحا بأن مدار المحبة أخوته ليوسف من الطرفين ألا يرى إلى أنهم كيف اكتفوا بإخراج يوسف من البين من غير تعرض له حيث قالوا اقتلوا يوسف " (٣) .

فالجملة هنا خبرية ،المراد منها الاحتجاج على محبة يعقوب عليه السلام ليوسف وأخيه محبة خاصة، وإخراج أولئك الإخوة العصبة من تلك المحبة ، والخبر هنا ملقى على من لا ينكره ولا يشك فيه ولا يتردد في قبوله ،حيث ألقي بلسان الجميع على الجميع ، والواقع أن الملقي واحد منهم ولكن لما كان هو رأي الجميع أسند الفعل إلى ضمير الجمع واو الجماعة ، وكأنهم اشتركوا في القول بعبارة واحدة ، ومادام الأمر كذلك فلم أكد الخبر بمؤكد واحد ؟ لقد نزل القائل إخوته منزلة المشكك في الخبر، وما ذلك إلا تأكيدا منهم على صحة الخبر وأنه لا لبس فيه ولا شك ولا تردد في قبوله .

---

(١)الكشاف ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٢)التفسير الكبير للفخر الرازي ج ١٨ ص ٩٢ .

(٣)تفسير أبي السعود ج ٣ ص ١١٢.

ثم جاءت الجملة الخبرية الأخرى المبنية على الجملة الأولى : ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ وهي تابعة لسابقتها في المتكلم بها . وفي المخاطب بها أيضا ،ولكنها خالفتها في دخول أكثر من مؤكد عليها ،وما ذلك إلا أن الخبر الأول قد كان من عالم به إلى غير منكر له . أما الخبر الثاني فقد كان تعليلا لسابقه . وكان المتكلم به والمخاطبون به لا ينكرونه ولا يشككون فيه ،ولكن تحريضا لأنفسهم ودفعا لها من أجل قبول الخبر الأول . وكأن معترضا اعترض على ما قالوا في الخبر الأول . لأن الأصل في علاقة الأب بأبنائه علاقة ود وعدالة . ولأنه لا يقدح فيها أن يفضل بعض الأبناء على بعض في ميل القلب ولغة المشاعر لاعتبارات منها الصغر. فما بالك إذا خالط الصغر نجابة وذكاء . وعلامات تنبئ عن فضل في النجابة والذكاء ،بل توحي بما هو فوق ذلك كله وهو النبوة كما هو الحال مع يوسف .

لقد نزل المخاطب هنا منزلة المنكر لا إنكارا ولكن استنكارا . وكأنهم هنا يقولون لأنفسهم إياكم أن تحيدوا عما أزمعتم عليه . إنه خبر يحفز النفس على قبوله وعدم التردد في ذلك .

ومن ذلك قوله تعالى على ألسنة إخوة يوسف أيضا : ﴿ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ آية ١٤.

فالجملة هنا احتجاج ومحاجة على قول أبيهم : ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾ ويلحظ هنا أن الجملة مملوءة بالمؤكدات . فاللام الموطئة للقسم "لئن" ثم إن واللام في " إنا إذن لخاسرون " بالإضافة إلى زيادة "إذن" في الجملة مع إمكان الاستغناء عنها ،وتمام المعنى بدونها في السياق . وهذا الحشد من المؤكدات لتنزيل المخاطب المتردد منزلة المنكر، وذلك ترغيبا له في قبول الخبر، وإيناسا له حتى لا يبقى لديه ما يخشاه مما أثار شكه وتردده . فقد كان الأمر لديه مجرد حزن وخوف وليس قطعا بالمنع .

ومع هذا نزلوه منزلة المنكر للخبر ،وهذا يدل على حرصهم الشديد على قبول أبيهم الخبر وعدم الاعتراض على ما طلبوا ،وهو رفقة يوسف عليه السلام لهم إلى المرعى بعيدا عن والده .

ومن الأخبار الاحتجاجية قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ آية ١٨ .

" بل سولت لكم أنفسكم أمرا " جملة خبرية خالية من المؤكدات . لاعتبارين : الأول إضراب المتكلم عما أخبروه به، وهذا الإضراب سينقل الخبر الوارد عن طريقهم إلى مسار آخر" قوله (بل) رد لقولهم :(أكله الذئب) كأنه قال : ليس كما تقولون (بل سولت لكم أنفسكم) في شأنه (أمرا) أي زينت لكم أنفسكم أمرا غير ما تصفون "[1] .

الثاني أن المخاطب خالي الذهن من فحوى الخبر الذي أخبر به الأب . ومن هنا كان سر مجيء الخبر خال من المؤكدات .

وهنا أمر آخر وهو التراكم المعرفي عن القضية ، فالأب يعلم أن إخوة يوسف سيكيدون له كيدا ،والأبناء يعلمون من أبيهم عدم ثقته فيهم ،ومن هنا كان الخبر لتنزيل المنكر منزلة خالي الذهن باعتبار الخبر مما لا يمارى فيه ولا يشك في صحته .

وقد تتابعت الآية بخبرين آخرين معطوفين على هذا الخبر وعلى نسقه ،من عدم المؤكدات الخبرية ، ومسايرة لموقف الطرفين المتكلم والمخاطبين " فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون " فالصبر الجميل هنا ، والاستعانة بالله تعالى على ما يصفون كلاهما ذو صلة بواقع الأمر الذي وقعت فيه الجملة الاعتذارية ، وينطبق عليها ما انطبق عليها .

وهنا موضع " من مواضع الحذف في المسند إليه ، حيث يؤدي الحذف إلى زيادة الاحتمالات والتقدير ، وفي هذا ما فيه من تأثير على المعنى ... إذ يمكن القول : أمري صبر جميل ويمكن القول : ﴿صبر جميل أجدر بي وأجمل ﴾ "[2] .

ومن ذلك قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام عند مراودة زوجة العزيز له ، وطلبها إياه : ﴿ قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ﴾ آية ٢٣ .

" قال معاذ الله " أي أعوذ بالله معاذاً مما دعوتني إليه ، فهو مصدر منتصب بفعل محذوف مضاف إلى اسم الله سبحانه ، وجملة " إنه ربي أحسن مثواي " تعليل للامتناع الكائن منه ببعض الأسباب التي هي أقرب إلى فهم امرأة العزيز ، والضمير للشأن أي : إن

---

(١)التفسير الكبير للفخر الرازي ج ١٨ ص ١٠٢ .

(٢)بلاغة التراكيب دراسة في علم المعاني ص ٥٩ .

الشأن ربي ، يعني : العزيز أي سيدي الذي رباني ، وأحسن مثواي حيث أمرك بقوله " أكرمي مثواه " فكيف أخونه في أهله ، وأجيبك إلى ما تريدين من ذلك ؟ وقال الزجاج : إن الضمير لله سبحانه أي إن الله ربي تولاني بلطفه فلا أركب ما حرمه ، وجملة "إنه لا يفلح الظالمون " تعليل آخر للامتناع منه عن إجابتها "[1] .

وبالنظر في الآية تبرز الجملة الاحتجاجية " إنه ربي أحسن مثواي " جملة خبرية مؤكدة بمؤكد واحد تنزيلا للمخاطب خالي الذهن منزلة المتردد المشكك في قبول الخبر، وذلك لقطع الطريق على وهمها ، وكذلك لموقفها في قبول رفضه (معاذ الله) فقد كانت لا تتصور أن يأنف أو يعتذر عن قبول ما أرادت منه فلما قال : معاذ الله دخلها تساؤل لمعرفة السر في ذلك فتطلب الخبر التعزيز بمؤكد واحد هو حرف التوكيد "إن" .

ثم ثنى بجملة أخرى متطابقة مع سابقتها في الحجة ،وفي البناء من حيث التوكيد (إنه لا يفلح الظالمون) وهي تقوي معنى سابقتها وتبينه .

ومنه قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام : (هي راودتني عن نفسي) وموقف يوسف هنا موقف الدافع عن نفسه تهمة الخيانة المركبة ،خيانة من أكرمه وأحسن مثواه ، وخيانة الزنى بزوجة من يعيش في كنفه ويستظل بكرمه ، وقد وجهت إليه التهمة من سيدة القصر ، وأولى سيدات عصرها ، وفي مواجهة مع زوجها. إنه موقف صعب ، وتهمة مهولة تتطلب عند دفعها والمحاجة من شأنها إلى أغلظ الأيمان ، ووسائل التوكيد لإثبات عكسها وتقرير بطلانها ولكنها الثقة في النفس والصدق في الدعوى " هي راودتني عن نفسي " خبر خال من أي مؤكد حيث نزل المخاطب منزلة خالي الذهن تماما ، مع أن دعوى المرأة قابلة للتصديق ؛ فالعادة أنها أبعد عن طلب المراودة لما جبلت عليه النساء من الحياء ،وأن الرجال عادة هم المبادرون في هذا الشأن ، ثم إن الأمر تجاوز المحاولات المغرية والإيماءات المعبرة إلى مطاردات لم يسعها قصر العزيز على ما فيه من كثرة الأبواب " وغلقت الأبواب " بل بلغت تلك المطاردات باب القصر الرئيس الذي ينفذ إلى خارج القصر، وهذه دلائل تجعل الخبر كله لصالح امرأة العزيز، وضد يوسف عليه السلام ،ومع هذا كله كان الخبر الذي احتج به يوسف خاليا من المؤكدات

---

(١)فتح القدير ج ٢ ص ٤٠٩.

إنزالا للمخاطب المنكر منزلة خالي الذهن ، اعتمادا على واقع الحال من حيث علمهم بخلقه وسلوكه السوي ، ثم من حيث ثقة المتكلم في صدق خبره ، وبراءة موقفه حتى كأنه يظهر عليه بارزا عيانا مما لا يحتاج معه إلى تأكيد خبر ولا إقامة دليل .

ويلحظ هنا تعبيره عنها بضمير الغائب استبعادا لها حسا ومعنى ، فاستبعادها في الحس يعطي المتكلم مساحة أكبرفي حرية التعبير عنها ، واستبعادها معنى يعني عدم الاعتداد بها ومراعاة أمرها عند الحديث في القضية .وكأن الحديث هنا جاء من المخاطب أي العزيز لا منها وهذا غاية الدقة في التعبير عن دفع التهمة الموجهة إليه ظلما وزورا .

ومنه قوله تعالى على لسان الشاهد : (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) .

" أي من جنس حيلتكن ومكركن أيتها النساء لا من غيركن .عن الإفادة وتدبير العقوبة وإن لم يمكن تجريده عن الإضافة إليها إلا أنها لما صورته بصورة الحق أفاد الحكم بكونه من كيدهن إفادة ظاهرة فتأمل . وتعميم الخطاب التنبيه على أن ذلك خلق لهن عريق :

ولا تحسبا هندا لها الغدر وحدها سجية نفس كل غانية هند [1]

إن المخاطب هنا يعد خالي الذهن باعتباره يترقب ما سينطق به ذلك الحكم –على اختلاف هل هو الشاهد من أهل زوجة العزيز ، أم هل هو العزيز نفسه ـ فلا يعلم المخاطب ماذا سيقول ذلك الحكم ؟ ومن سيخاطب ؟ ولكن الحكم هنا نزل المخاطب منزلة المشكك أو المتردد . والمخاطب هنا هو امرأة العزيز وهي من حيث موقفها من قبول الخبر تعلم في قرارة نفسها أنه صحيح فلا شك لديها ولا تردد ، ولكن المتكلم نزلها منزلة المتردد في قبول صحة الخبر نظرا لسابق دعواها التي تنزلها منزلة المنكر، فقد ادعت على يوسف أنه من أراد بها سوءا فناسب أن تنزل هنا منزلة المتردد في تصديق الخبر ، وذلك عزاء لها وإيناسا لتقبلها الخبر، ويلحظ هنا أنه قال من كيدكن فأسند المصدر إلى ضمير المخاطبات ، وبغض النظر عما ذكر آنفا من أن المقصود أن هذا من خلق عامة النساء إلا أني أرى –والله أعلم – أن هنا مغزى بلاغيا أبعد من ذلك ، وهو

---

(١)تفسير أبي السعود ج ٣ ص ١٣٤.

إنما أراد من ذلك أن تتقبل ما نطق به بناء على صحة الدلائل التي ذكرها الشاهد من قد القميص من الدبر، فقد افتضح أمرها ، ومن الصعوبة بمكان أن تجابه بالحكم هكذا وفي مكان الاتهام ، فهون عليها الأمر بجعل ذلك عادة من عادات النساء وسلوكا من سلوكهن ، وهذا ليس كذلك وإنما أراد أن يهدئ من روعها ويخفف وقع الحكم عليها ، فأشرك معها النساء لتقبل الخبر بعد إن أصبح على العكس مما ادعته تماما ، وكونه من طبيعة النساء كما ذكر في الحكم فلن يضيرها أن تتقبله ولو على مضض ، فكان التوكيد بمؤكد واحد . ثم قال بعد ذلك زيادة في إيناسها " إن كيدكن عظيم " وهو للمغزى البلاغي نفسه .

ومن ذلك قوله تعالى على لسان النسوة اللاتي في المدينة : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ آية ٣٠ .

﴿ إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ [مقررة لمضمون ما قبلها . والمعنى : إنا لنراها أي : نعلمها في فعلها هذا ، وهو المراودة لفتاها في ضلال عن طريق الرشد والصواب ، مبين واضح لا يلتبس على من نظر فيه] [1] .

" وإنما لم يقلن إنها لفي ضلال مبين إشعارا بأن ذلك الحكم غير صادر عنهن مجازفة بل عن علم ورأي مع التلويح بأنهن متنزهات عن أمثال ما هي عليه "[2] .

وهذه الجملة الخبرية مؤكدة بمؤكدين "إن" ، واللام ، حيث نزل خالي الذهن منزلة المنكر وذلك من أجل تقبل الخبر وقبوله ، وهذا الخبر جاء على هذه الصورة لأن المخاطب قد يتلمس لها عذرا بما أصابها من شغف الحب ،فالأمر عند ذلك يصبح فوق تحملها وإرغاما لإرادتها فنزل من هذا حاله منزلة المنكر تقوية للخبر ، وإزالة للوهم واللبس الذي قد يحدث للمخاطب من جراء ما ذكر ، كما أن في الخبر تزكية للمتكلم وتنزيها له عما خاض فيه .

ومن ذلك قوله تعالى على لسان امرأة العزيز احتجاجا على لوم النسوة لها بعد أن رأين يوسف ، وأثنين على جماله ، وانبهرن به ، وقطعن أيديهن : ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى

---

(١)فتح القدير ج ٢ ص ٤١٣.

(٢)تفسير أبي السعود ج ٣ ص ١٣٦.

لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾

﴿ فذلكن الذي لمتنني فيه ﴾ جملة خبرية احتجاجية خالية من أي مؤكدات ، ويلحظ هنا صرف النظر عن توكيد الخبر إلى توكيد المخبر عنه إذا صح التعبير. فقد استعمل اسم الإشارة هنا للبعيد مع قرب المشار إليه إجلالا له ، وتعظيما لمكانته ، وإكبارا لجماله وحسنه .

قال الزمخشري : (ولم تقل فهذا وهو حاضر رفعا لمنزلته في الحسن واستحقاق أن يحب ويفتتن به وربأ بحاله واستبعادا لمحله ويجوز أن يكون إشارة إلى المعني بقولهن عشقت عبدها الكنعاني تقول هو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن ثم لمتنني فيه تعني أنكن لم تصورنه بحق صورته ولو صورتنه بما عاينتن لعذرتنني في الافتتان به) [1] إن النسوة لم يكن يعلمن ما ستقول لهن . ولذلك لا يلزم أن يؤكد الخبر الملقى عليهن بأي مؤكد، ولكن لما كانت النسوة يعلمن افتتانها بذلك الفتى ، ولما سمعت منهن الثناء عليه ، وتزكية جماله لم تحتج إلى أي مؤكدات للخبر فالأمر واضح في غاية الوضوح بين في غاية البيان، لا يتطلب مؤكدات ، ولا يتطلب معه المخاطب أن ينزل إلى منزلة غير منزلة خالي الذهن .

ثم قالت " ولقد راودته عن نفسه فاستعصم " وهذا الخبر مؤكد بعدة مؤكدات : الواو الدالة على القسم ، واللام ، وقد، وهذا غاية التأكيد ولا يكون إلا مع المخاطب المنكر للخبر . أو المنزل منزلة المنكر للخبر، والمخاطب هنا وهو النسوة لا ينكر الخبر ولكن لما كان الأمر كما علمن ورأين فقد نزل المخاطب غير المنكر منزلة المنكر نظرا لأهمية الخبر، ولتحرك لواعج الشوق في قلب المتكلمة بعدما علمت من النسوة الوقوع فيما وقعت فيه من الافتتان بيوسف ، وكأني بها تريد تحريك مشاعرهن ، ودغدغة عواطفهن ، نكاية بهن إذ قلن عنها : ﴿إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ فقد أصبحن بعد ما رأين يوسف يقفن منها موقف الحاسد بعد أن كنا يقفن منها موقف الشامت . وقد علمت ذلك منهن فقالت ما قالت .

---

(١)الكشاف ج ٢ ص ٢٥٤.

ومن ذلك قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ لما كان يوسف عليه السلام في السجن كان ذلك مما يقلل من مكانته حسب عرف الناس ، فلما كلمه الملك ومكنه وقربه . وهو أعرف الناس ببراءته مما نسب إليه أراد يوسف أن يختار لنفسه ما يجعله أكثر ظهورا في أمانته وصدقه ، وعدم تطرق الخيانة إليه فطلب أهم وزارة في تلك الحقبة . فمصر مقبلة على سبع سنين مملوءة بالخير والنعمة، ثُم تعقبها سبع سنين أخر مملوءة بالجفاف وعدم الأمطار، مما يتسبب في ذهاب كل خير بقي من تلك السنين الخيرة. وذلك يتطلب وزيرا يراعي أمر ذلك الخطر القادم يتصف بالأمانة والعلم وتلك فرصة يوسف عليه السلام (إني حفيظ عليم) وهذا خبر ألقي على خالي الذهن ولكن لما كان الطلب مما لا يناله إلا الندرة من الناس ، وبعد معرفة وتمحيص ومن دون سابق خطأ يحول دون ذلك . ولما كان الأمر بهذه الأهمية فقد أكد الخبر بمؤكد واحد هو "إن" مع اسمية الجملة بالإضافة إلى اختيار صيغة المبالغة من اسمي الفاعل : حفيظ وعليم .

ومع أن الملك قد قال له "إنك اليوم لدينا مكين أمين " ومع ثقة يوسف في موافقة الملك على طلبه سلفا إلا أنه نزله منزلة المتردد أو المشكك في صحة الخبر وذلك تطميناً له وإزالة لما قد يجول في نفسه من خواطر أو هواجس . ولاسيما أنه يطلب مطلبا نفيسا ومنصبا كبيرا .

ومن ذلك قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ إنه يحتج لنفسه بما يرغب إخوته في قبول ما طلب منهم من المجيء بأخيهم وإقناع أبيهم بذلك ، وهذه الجملة الخبرية تتضمن حرف التحضيض "ألا" وهو من مؤكدات الخبر كما تتضمن "أن " المؤكدة وذلك لتنزيل المخاطب خالي الذهن منزلة المنكر نظرا لأهمية ما طلب ، وصعوبته عند إخوته ، وقد أراد أن يغريهم بما يضمن عودتهم إليه مصحوبين بطلبه العزيز. أخيه لأمه .

ويلحظ هنا استعمال الفعل مع الوفاء دلالة على التجدد والحدوث ، واستعمال الاسم مع الإنزال للدلالة على الثبوت والدوام ، فالإنزال أعظم من الكيل حيث لا مقابل فيه ، أما الكيل فهو بمقابل من ثمن أو شبهه .

ومنه قوله تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ آية ٧٣

إن الجملة الخبرية هنا مؤكدة بأعظم المؤكدات : القسم بحرفه القوي . التاء. إيحاء بقوة القسم وغلظته وكذا اللام وقد. وهذه المؤكدات باعتبار المخاطب منكرا لدعواهم فقد قال لهم " أيتها العير إنكم لسارقون " فلا يكفي معه إلا ما يتلاءم مع حاله المنكرة للخبر، وهنا الخبر جاء على مقتضى الظاهر ، ويلحظ هنا أيضا أن القسم منهم وتأكيد الخبر بهذه المؤكدات لم يكن لدفع التهمة عنهم ، وإنما لإعلام المخاطبين بعلمهم بحال هؤلاء ، وأنهم لم يأتوا إلى تلك المدينة لشيء مما اتهموا به ، ثم عطفوا على تلك الجملة جملة أخرى " وما كنا سارقين " فنفوا عن أنفسهم أنهم لم يكونوا سارقين بنفي الماضي دلالة على سلامتهم من تلك التهمة فليست السرقة مما تعودوه أو تخلقوا به .

ومنه قوله تعالى على لسان إخوة يوسف محتجين على أخذه لأخيهم : ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ آية ٧٨ .

الجملة هنا ملقاة على خالي الذهن ، فالمخاطب لا يعلم ماذا سيقولون ، فنزلوه منزلة المتردد طمعا منهم في تفهمه لما يرغبون أن يفعل معهم .

ويلحظ هنا تقديم المسند في الجملة الاسمية ، لتشويق السامع إلى معرفة المسند إليه ، وفي هذا شد انتباه وحرص على إيصال الخبر إلى ذهن السامع بدقة متناهية ، ثم جاء المسند إليه اسما نكرة "أبا" ولك أن تتخيل ماذا سيجول في خاطر المخاطب من تساؤلات عن صفة ذلك الأب ، ثم وصف بأنه "شيخا" وفي هذا مدعاة لقبول الخبر والقناعة بالمطلوب ، ولكنهم حرصا منهم في استعطاف المخاطب ، وترقيق قلبه أضافوا إليه وصفا آخر " كبيرا" ومع أن كلمة شيخ قد تغني عن كلمة كبير لإيحائها بمعناها إلا أنها قد توحي بمعنى آخر ، فقووا مرادهم بكلمة كبير .

وهناك جمل إخبارية أخرى في هذا الموضوع وفي غيره مما سبقه من موضوعات أخرى ، ولكنها بعمومها لا تخرج بلاغيا عما ذكر ، ولعل فيه ما يفي بالغرض المراد وبالله تعالى التوفيق .

الخاتمة :

لقد حفلت سورة يوسف بقصة نبي كريم جعل الله له جمالا في خلقه وجمالا في خلقة، وحفه سبحانه بعلم تأويل الأحلام ،وقد ولد ذلك النبي الكريم في بيت نبوة، وفي كنف أبوين عطوفين، ووجد نفسه يتقاسم أبوة والده مع أحد عشر أخا أغلبهم يكبره ، مما جعلهم يرون في حفاوة والدهم به ، واهتمامه بشأنه لما علم من مخايل النجابة فيه ودلائل النبوة عليه . يكيدون له المكايد ويصنعون من أجله ما يرون فيه إبعادا ليوسف عن أبيهم فكانت ، تلك القصة العجيبة متعددة الأطوار التي انتظمت حياة يوسف ، وما حدث له من طفولته إلى أن تولى وزارة خزينة مصر في عهده

وهذه القصة العجيبة توالت فيها الشخصيات ، وتنوعت في الزمان والمكان والقرب والبعد والمكانة الاجتماعية ، مما جعلها مكتظة بالجمل الخبرية على تعدد أضرب الخبر في تلك الجمل، وهذا مما يغري بدراستها بلاغيا ، وقد رأيت أن من استيفاء الدراسة البلاغية في هذا الشأن أن أقسم السورة إلى أربعة أقسام حسب موضوعاتها على سبيل العموم لا على سبيل الاستقصاء باعتبار دخول بقية آيات السورة وموضوعاتها في ذلك ، وهذه الموضوعات العامة هي التي وردت الجمل الخبرية في السورة تبعا لها ، فهناك أخبار منامية تتعلق بالرؤى والأحلام وهناك أخبار وعدية فحواها وعد أو وعيد تتعلق بأمر مستقبلي لم يتم منه شيء بعد ، وهناك أخبار اعتذارية مضمونها الاعتذار تقوم على اعتذار يعتذره المتكلم ، وهناك أخبار احتجاجية يخبر بها المتكلم لبيان حجته ، أو لرد ما قال غيره بحجة يقولها المتكلم ، وهناك أخبار أخرى متفرقة ولكنها لا ترقى إلى حجم هذه الأنواع الأربعة ، وكذا لا تخرج بلاغيا عما درس في هذه الأربعة ولذا اقتصرت على ما ذكر .

إن المتتبع لبلاغة القرآن الكريم في أي فرع من فروع البلاغة وعلومها – ليجد بحرا زاخرا لا ساحل له ، كيف لا وهو معجزة النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام .

لقد ظهر من خلال البحث أن التقعيد البلاغي لا يجدي شيئا ما لم يتكئ على تطبيق تحليلي ، يظهر روعته ، ويبين جماله ، وإني أهيب بطلبة العلم ممن يحسنون التحليل البلاغي أن يتعمقوا في إبرازه من خلال بحوث يقومون بها ،أو يكلفون بها من تحت أيديهم من الطلاب الجامعيين ، ولاسيما طلاب الدراسات العليا ، وإن كل سورة مستقلة

في حجم سورة يوسف عليه السلام كافية أن تكون موضوع رسالة ماجستير أو دكتوراه ، لتحليلها تحليلا بلاغيا ، بعيدا عن التقعيد والتقسيمات الجافة التي يذهب ببهاء البحث البلاغي .

آمل أن أكون قد أسهمت بهذه الدراسة المتواضعة في بيان بعض بلاغة القرآن الكريم التي هي بحر لجي لا يبلغ الغائصون أعماقه، ومحيط عباب لا يصل السباحون المهرة ساحله .

وإني لأعلم مدى التقصير لدي ، ولكنها محاولة أردت منها أن أفيد بما استطعت الوصول إليه من بلاغة هذا القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبالله تعالى التوفيق ، ومنه جل وعلا العون والسداد .

* * *

ثبت بالمراجع :

١- **الإتقان في علوم القرآن**. تأليف جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ج٢، عالم الكتب بيروت.

٢- **الإيضاح في علوم البلاغة**: المعاني والبيان والبديع. الخطيب القزويني. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م. دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

٣- **البلاغة العربية في ثوبها الجديد.علم المعاني** د. بكري شيخ أمين . ج١ ـ الطبعة الثالثة ١٩٩٢م. دار العلم للملايين، بيروت لبنان.

٤- **البلاغة فنونها وأفنانها** . علم المعاني د. فضل حسن عباس الطبعة التاسعة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.دار الفرقان والنشر والتوزيع . عمان الأردن.

٥- **تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم** لأبي السعود محمد العمادي الحنفي. تحقيق عبد القادر أحمد عطا ج٣ الناشر مكتبة الرياض الحديثة الرياض.

٦- **التفسير الكبير** للفخر الرازي ج١٨ الطبعة الثانية دار الكتب العلمية طهران.

٧- **دراسات في المعاني والبديع** د. عبد الفتاح عثمان مكتبة الشباب المنيرة. القاهرة.

٨- **دلالات التراكيب دراسة بلاغية**. د. محمد محمد أبو موسى. الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م. مكتبة وهبة. القاهرة مصر.

٩- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير** . تأليف محمد بن علي الشوكاني ج٢ الطبعة الرابعة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م. مكتبة الرشد ناشرون المملكة العربية السعودية.

١٠- **فن البلاغة** د. عبد القادر حسين الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.عالم الكتب بيروت.

١١- **الكشاف** للزمخشري. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تأليف جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ج٢ دار المعارف بيروت لبنان.

١٢- **مفتاح العلوم** للسكاكي يوسف بن أبي بكر السكاكي الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م بيروت لبنان دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

* * *